الغيوم

قصة بقلم يوسف الخطيب

مع أنني ادرك حق الادراك أن وظيفة الحياة هي الصراع من اجل البقاء، الا أن عنصر الشرف يكاد يكون مفقوداً في صراعي مع الطبيعة، ولا أدري إذا كان من النبل في شيء أن تجند السماء ضدي كل هذه القوى الغاشمة الشرسة.

ابنتي آمنة، ليس باستطاعتها أن تنام، مع أنه لم يبق إلا أقل الليل.. إن جسمها الناحل ينتفض من شدة البرد. والبطانية التي تلتف بها لا تقيها رطوبة الارض، ولا سياط الريح الحادة المتخللة شقوق الخيمة من كل اتجاه.. قبل لحظات كنت على وشك أن اغفو لو لم توقظني بصراخها المذعور..

— الرعد يا أبي.. إن السماء تهبط علينا..

قلت في نفسي، ليتها تهبط بالفعل. واخذت أهدئ من روع الطفلة بعد أن ضممتها إلى صدري الخشن الغليظ.. قبل ليلتين فقط، كان يضمها صدر آخر. أشد حناناً واكثر طراوة، غير أن ذلك الصدر الدافق بالحب لم يعد يضم أحداً. أول أمس واريناه التراب، واصبح اطفالي الثلاثة بغير أم إلى الأبد.

يا إلهي، كم يحترق الليل بهذه الومضة الخاطفة، وكم يجلجل هذا الدوي المفزع الشرس.. أرجوك أيها الإله الطيب القلب، أتوسل من أجل مخلوقاتك الصغيرة أن توقف الرياح وتقشع الغيوم، فلسنا بحاجة إلى المطر.. مطلقاً، لسنا بحاجة إلى قطرة واحدة من المطر.. قليلون جداً على الارض أولئك الذين يفيدون منه، ومع ذلك، فهم ليسوا شاكرين لك.

إن محمود، أصغر أطفالي الثلاثة، يتقلص في بطانيته من شدة البرد والرطوبة وأخشى ألا يصبح عليه الصباح.. وعندما مررت بيدي على كتلة اللحم الهزيلة المتقلصة تململ محمود، ثم انكفأ على وجهه..

— آما.. بدي آما..

وأخذ يبكي..

كان نشيجه الواهن المتقطع، بمرافقة الانشودة الرتيبة التي يغنيها المطر، بمرافقة القصف الذي يجيش به صدر السماء، بمرافقة الاصوات الكثيرة المبهمة التي يبعثها الليل.. كان ذلك كله لحناً متكاملا رهيب الايقاع.

— نم يا حبيبي.. نم، ستعود أمك مع الحجاج، وسوف تأتيك بهدية من مكة، تماماً كما أوصيناها.. ستحضر لك قطعة كبيرة من الحلوى، ومعطفاً كالذي شاهدته في المدينة، واشياء أخرى كثيرة..

ثم هدأ النشيج رويداً رويداً، وغاب الطفل في نوم عميق، فقد كان من السهل أن تجوز الكذبة عليه، ولكنه ذات يوم سيدرك الحقيقة.

يا حبيبتي الراحلة، كيف تشعرين الليلة!

أتؤنسك البلوطة التي تجاورينها الآن، بقدر ما كنت تأنسين إلى ظلال حدائق النخيل الممتدة على ضفاف المشرع.. هناك في بيسان، حيث كنا نقضي نزهاتنا المفضلة؟! ولكنك تدركين يا حبيبتي أنه لم يكن في وسعي أن أختار لمثواك الأخير مكاناً أفضل.. ولشد ما يخجلني يا خديجة أنني لم استطع حتى شراء الكفن، فدفنتك بثوبك، ووسدت رأسك النبيل ببطانية خشنة، وغطيتك بسائر أثوابك القديمة، ومع ذلك، فان طبقة التراب الرقيقة التي تواريك لن تمنع الماء من أن يتسرب اليك.. سامحيني يا رفيقتي، وأنا أيضاً سأسامحك عن أطفالك الثلاثة، فان حاجتهم اليك أقوى من الموت.

— أنقذنا يا أبي.. اليهود.. قتلوا جدتي.. دمها يسيل.

وجاء دور خالد.. إنه يحلم، ومن عادته أن يهذي أثناء النوم.. لابد أنه يمر الآن بحلم مثير. ولولا أنني أخشى عليه حدة البرد لأيقظته من نومه، لأن الاحلام المثيرة ترهق الاعصاب، واعصاب خالد مرهقة منذ نزحنا عن بيسان، فقد قدر لعينيه الصغيرتين آنذاك، وهو لم يبلغ الخامسة بعد، أن تريا القتلى والدماء، وقدر لعقله الصغير أن يستوعب معنى الخيانة والتشريد.. فأي حلم مثير يمر به الآن؟.. لعله يستعيد من عمق السنوات صورة جدته القتيلة، أو لعله يستعيد صورة المشرع، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يستحم في مائه الدافئ، حين كنت اردفه على ظهري واقطع به النهر إلى مسافات قريبة.. قد يخيل إليه أنه يقف وحيداً على حافة النهر، وقد تلونت مياهه بلون احمر واستحالت اسماكه الصغيرة إلى عقارب صفراء.. لا أدري ماذا يخيل إليه الآن.. أنا نفسي رأيت ما يشبه هذه الاضغاث.

— جدتي.. جدتي.. قتلها اليهود.. دمها يسيل..

ولم يكن بد من ايقاظه، فإن الشعور بالبرد خير له من الاستمرار في احلامه المزعجة، لعله بعد ذلك يستعيد هدوءه وينام.

— خالد.. خالد..

وغمغم فيما بين النوم واليقظة:

— نعم يا أبي.

— وسادتك غير مريحة يا بني.

— نعم، إنها منخفضة.

— احرفها قليلا، ونم.

— حاضر.. تصبح على خير يا أبي.

وكان جديراً به أن يقول صباح الخير. فإن ساعتي القديمة التي استطعت أن احتفظ بها حتى الآن، أو بصراحة اكثر، ساعتي التي لم يدفع أحد مقابلها نصف دينار، تشير إلى الرابعة صباحاً، وهذه هي الليلة الثانية على وفاة خديجة، واعتقد أن اكثر من ليلة قادمة ستمر بي دون نوم.. إن هذا الحلف من الحزن والجوع والبرد يستبعد النوم عن جفني.. إنني لم أعد أبا خالد القديم، فقد تجعد وجهي بالاخاديد في وقت مبكر، واتحسس بخيبة بالغة ذراعي اليمنى فلا أجد شيئاً من كتلة العضلات التي كانت مفتولة عليها.. إن ظهري أيضاً على وشك أن يتقوس، وسني لم تتجاوز الخامسة والثلاثين..

— الحية.. اكلتني الحية!!

كانت هذه المرة صرخة مفزعة للغاية، ارتعدت لها مفاصلي المتعقدة من شدة البرد، واستيقظ من هولها محمود وآمنة، إذ لم يكن حلماً هذه المرة كتلك الاحلام المزعجة التي يعيشها خالد طول الليل، فقد هب من فراشه وكشف عن جانب ظهره لكي يتحسس مكان اللسعة، ثم صرخ من جديد:

— الحقني يا أبي.. دمي يسيل.. قتلتني الحية!!

– ولكن الثعابين لا تظهر في الشتاء .. اهدأ يا خالد .. كن رجلا ..

ولا أنكر أن الخوف تملكني من الرأس إلى القدم حين مررت بيدي على ظهر خالد ، فتحسست سائلا بارداً يملأ قميصه وجانباً من ظهره ، ولم يكن من السهل علي لأول وهلة أن أفطن إلى أن الماء تسرب داخل الخيمة ، ولسع بحرارته الثلجية جسم خالد كأعنف ما تكون لسعة الحية ، فقمت من فوري إلى الجهة التي ينام فيها ، وإذا بركة صغيرة قد تكونت هناك ، يرفدها سيل صغير كان قد نقب الحاجز الطيني الملتف حول الخيمة من الجهة الشمالية .. لقد أدركت ذلك بحاسة اللمس ، بيدي فقط ، فقد كان الظلام دامساً بحيث لم يعد لعيني وظيفة على الاطلاق ، فادركت أنني اصبحت بحاجة إلى كل نشاطي ، وأخذت أدور داخل الخيمة لكي أتأكد من سلامة الحاجز في سائر جهاته .. إن القسم الشرقي أيضاً على وشك أن يتصدع .. يداي تقولان ذلك .. ليس عندنا نقطة زيت واحدة .

– خالد .. وأنت يا آمنة . امسكي بيد محمود .. تكوموا هنا ، ولفوا انفسكم بالبطانيات .

إن القسم الجنوبي ، حيث تكوم الأطفال ، مرتفع بعض الشيء عن سوية ارض الخيمة .

وقد خطر لي أن أشق باب الخيمة قليلا ، لكي اتبين المساحة التي غمرها الماء ، ورغم أني تلفعت جيداً ببطانية سميكة ، فقد كدت اسقط من البرد ، وصفعتني لفحة من الصقيع خلتها نفذت إلى عظامي .

– ما اعنف هذه العقدة التي تعانيها السماء .

كان الظلام مطبقاً شاملا ، أشبه بغول خرافي كبير ، وكان المطر يسح بصورة جنونية .. بشراسة .. ولم يكن يتبين للعين أي شيء ، سوى بعض الخيام القريبة ، وكأنها لطخات أشد سواداً على لوحة كبيرة سوداء . ومن يدري ، ربما غمر الماء معظمها .

ومن خلال جلبة الريح والرعد والمطر ، استطعت أن أميز صوت خطوات تقترب ، ثم تبين لي شيئاً فشيئاً شبح إنسان يسير متثاقلا باتجاه خيمتنا ، ولم يكذبني حدسي ، فقد كان الشيخ حابس بلحمه ودمه قادماً من أجل مساعدتنا .

– خير يا جيران .. سمعنا صراخاً باتجاهكم .

– بسيطة يا عم حابس .. المياه نقبت حاجز الخيمة

– هذا ما توقعته ، غمر الماء أيضاً خيمة الحاج علي الفالوجي .

– ولم يحدث شيء .. سليمة إن شاء الله ؟!

– سليمة ، والحمد لله .

والشيخ حابس هذا في حدود الخمسين من العمر ، ذو لحية كثة بيضاء ، وتقاطيع صارمة ، وعينين عربيتين كأنهما عينا صقر .. وأما قامته فمعتدلة باسقة ، يشدها هيكل عظمي صلب لم تقو الايام على انهاكه .. وهذه هي ابرز المميزات التي جعلت منه مختاراً لقريته اكثر من عشرين سنة .

ولكن ، إلى جانب ذلك ، يتمتع الشيخ حابس بحب فطري لمساعدة الآخرين وحل مشاكلهم ، وكان إذا مر أحد بمنزله قبل النزوح ، شاهد ما ينوف على ثلاثين حماراً ربطت ارسانها في جذوع اشجار الزيتون المجاورة ، وقد وفد عليها الفلاحون من القرى المتاخمة ، ليحلوا في مجلس الشيخ بعض القضايا العرفية التي ما كان يحلها القانون .. يضاف إلى ذلك أنه كريم طيب النفس ، وبالجملة ، يتحلى بصفات عربية قديمة .

– أبو خالد ، اهل المجرفة واتبعني

– لا تجهد نفسك يا عم حابس

– اتركنا في المهم الآن .. أغلق باب الخيمة جيداً على الاولاد

وبدأنا نعمل ، كانت الساعة تقارب الخامسة صباحاً .. إن ميناء ساعتي الفسفوري لم يعد متوهجاً واضحاً كالسابق ، تماماً كعين الشمس المنطفئة وراء الغيوم .. كل شيء يفقد روعته واصالته على هذه الأرض . إلا قلب الانسان النابض أبداً بالحياة ، رغم كل الاحلاف المتضافرة عليه .. إن الانسان في الأصل طيب محب للخير ، وقلبه انصع من قطعة من الشمس . لولا هذه الكلف التي تلطخه بتأثير الطبيعة نفسها ..

وسعل الشيخ حابس فيما هو يلقي حجراً كبيراً يعترض به مجرى الماء ، على حين أخذت أجرف بالمجرفة التي في يدي شيئاً من الطين أسد به الثغرات التي تتخلل كومة الحجارة .. وكانت الحجارة في حرارة الجليد ، حتى لقد شعرت بأن اصابعي المتورمة تكاد تسقط من يدي دون أن أشعر بها .

– جبال الخليل قاسية المناخ في الشتاء ..

قالها الشيخ حابس ، فأيقنت في داخل نفسي أن مقاومته بدأت تنهار أمام البرد ، ثم سعل مرة أخرى ، وبصق في الظلام ، وعندها شعرت أنني اثقل عليه .

– الله يعطيك العافية عم حابس

– ماذا ؟!

– ارجوك ، إذا كنت تريدني ، أن تعود إلى خيمتك لتغفو لك ساعة من الزمن .

– وإذن ، فأنت تحسبني عجوزاً هرماً ؟.

وقهقه عالياً ، ثم استدار إلى وقال ..

– علينا أن نسرع في تمكين الحاجز ، لكي ننزح الماء من داخل الخيمة ، فإن علينا أن ننجز أشياء كثيرة .

كانت تعود في مخيلتي ، ونحن نعمل ، صورة منزل حجري أنيق لوزير سابق رأيته ذات مرة في عمان ، أثناء ترددي على العاصمة للحصول على بطاقة الاعاشة .. وسمعت أحد المارة يحادث رفيقه

– إن باستطاعة معالي الوزير أن يبني عمارة من لون ربطة عنقه ..

وتداعت في مخيلتي صورة وكالة الغوث ، ثم صورة ذلك الموظف الجلف الذي نهرني بقسوة ، وبصق في وجهي بعض الكلمات الحقيرة التي اذكرمنها حالياً .. بهايم .. دواب .. حشرات .. لمجرد أنني توسلت إليه رفع العريضة إلى رئيسه .. لقد كان حقيراً جداً ، هو الموظف ، ومع ذلك فقد ناديته اكثر من مرة : أستاذ .. من فضلك يا استاذ .. وكان لا يكاد يجيبني ، حتى لقد خيل إلي أنه يتلمظ بوضاعة نادرة على تكرار مناداته بهذا اللقب .. فما أعجب الانسان حقاً ! . إنها ليست مجرد كلف لطخت قلب ذلك الموظف ، فالمسألة بالنسبة إليه ، كسوف دائم على ما يبدو . ولكنني في النهاية حصلت على البطاقة بعد عناء كبير ، ولو كان في مقدوري أن أذهب إلى سوريا لوجدت هناك عملا شريفاً .. إن ابن الشيخ حابس يعمل مدرساً في حمص ..

كل هذه الصور تداعت في مخيلتي مهزوزة مختلطة .. وكأنما افقت من حلم ، تذكرت أنه بعد يومين ينتهي الأجل المحدد لتوزيع المؤن عن الشهر الحالي ، وقد لذعني بحرارة أنني تأخرت في الحصول عليها حتى الآن . فالاطفال جياع ، وليس عندنا حبة دقيق . ولكن لا بأس . لم ينته الوقت وسأحصل اليوم على مؤونة الشهر ..

– عم حابس ، هل حصلت على حصتك من المؤن ؟

– معلوم .. لماذا ، ألم تحصل عليها !

– وأنت تعرف السبب ..

– حسناً .. يجدر بك أن تحصل عليها اليوم .

– لعله خير .

كنا قد نزحنا الماء كلياً من داخل الخيمة . ولكن أرضها الطينية ظلت مع ذلك لزجة مشربة بالماء ، وكان الاطفال قد غابوا في نوم هادئ عميق ، بعد عناء الليلة الكافرة التي مروا بها .. واما السماء ، فلم يرق لها أن تصدق بعد أن الارض قد رويت بالماء ، وأن موسم الغربان سيكون غزيراً دافقاً بالعطا .

قال الشيخ حابس وهو يتدثر ببطانيته ويلقي بالمجرفة على كتفه

– عفوك يا رب .. إنها حكمتك ..

لقد كان الرجل مؤمناً ، ومع ذلك ، فقد كان في نبرته عتاب رقيق ، ثم توارى شيئاً فشيئاً في الضباب . وقهقه الرعد بغلاظة .

* * *

عندما استيقظ محمود بعد ساعة تقريباً ، كان أول ما تلعثمت به شفتاه ..

– غيف آما .. بدي غيف كول ..

ولم يكن في الخيمة رغيف واحد ، حتى ولا كسرة يابسة من الخبز .. ولا انكر أنني مذنب بالنسبة لمحمود ، أو أن أعذاري على الاقل ليست مقبولة لديه ، فسارعت من فوري إلى ايقاظ آمنة . لتقترض لنا رغيفين أو ثلاثة من خيمة الشيخ حابس ، وأما خالد فقد استيقظ من نفسه ، ولم يكن في الواقع أقل جوعاً من محمود ، ولكنه أشد مقاومة .

– خالد ، الله يرضى عليك .. اليوم تذهب معي للمركز ، لتساعدني في نقل مؤونة الشهر .

– حاضر يا أبي .. هل البطاقة معك ؟

ومددت يدي في الجراب المتدلي من سقف الخيمة ، فوقعت أصابعي على المشط الكبير الذي كانت تستعمله خديجة ، وعلى منديل لها ، وقطعة مستعملة من الصابون ، وأشياء اخرى صغيرة .. ولكنني لم أعثر على وريقة واحدة ، فكذبت ظني بادئ الأمر ، وبحركة لا شعورية وجدتني انزع الجراب من مكانه ، وأجيل النظر في داخله ، ثم أفرغ كل ما فيه على الارض .

– ولكن ، هذا مستحيل .. هذا لا يمكن أن يحدث ! !

وبادلني خالد نظرة غامضة قلقة

– البطاقة يا خالد .. بطاقة الاعاشة ، غير موجودة ! !

ولكن وجهه لم يتلون بأي تعبير ، وظلت تقاطيعه جامدة لا تدل على شيء .

وعندما رجعت آمنة ، كانت تحمل في إحدى يديها خمسة أرغفة ، وفي يدها الاخرى صحناً نحاسياً مليئاً بالزيتون .. وعلى أرض الخيمة العارية تحلقنا حول مائدة الصباح ، وكأن محمود لم يصدق عينيه ، فاحتضن رغيفاً ، وأخذ ينظر بنهم إلى الرغيف الخامس الزائد عن حاجتنا .. ثم تكلم خالد ..

– والبطاقة يا أبي ؟

فتوقفت آمنة عن الأكل ، وأخذت تجيل النظر في وجهينا .. ثم تساءلت بحسرة ، وكأن هناك شيئاً قد سبق تقريره بيني وبين خالد ..

– وهل تفعل ذلك يا أبي !

– أي شيء أفعله يا آمنة ..

– البطاقة .. هل ستحصل عليها ! ·

– طبعاً يا بنيتي !

– ولكن.. حرام يا أبي .. حرام ..

وأخذت تبكي ، ثم انفجرت غاضبة متوسلة ..

– أرجوك يا أبي .. حرام ..

– حرام ماذا .. هل تشعرين بصداع يا حبيبتي ؟

– كلا يا أبي ، ولكن فتح قبور الموتى حرام ..

– ولكن يا آمنة .. ما حاجتنا ..

وكنت على وشك أن أسألها ما حاجتنا إلى فتح قبور الموتى ، لولا أنني استوعبت في لحظة واحدة كل شيء ، وعندها ، شعرت بارتخاء يائس في كل أعضائي ، وحدقت في لا شيء ، ولا أدري لأية فترة من الزمن بقيت شارداً عن كل ما حولي .

لقد اعتادت خديجة أن تحتفظ بالبطاقة في قبتها ، حرصاً عليها من الضياع ، ولكني لم أفطن إلى ذلك يوم دفنها ، وأحسبني الآن مضطراً إلى فتح حفرتها رغم توسلات آمنة ودموعها « ليس هناك حل آخر .. لا يمكن أن أسمح لاطفالي أن يموتوا من الجوع .

– لن تفتح قبرها .. أرجوك يا أبي ..

– اطمئني يا حبيبتي ، لن أفعل ذلك

ولمحت الراحة والسلام يشملان أسارير آمنة .. ولكنني في الواقع كنت حائراً قلقاً ، فأخذت أوازن منطقياً بين الحصول على البطاقة وعدم الحصول عليها ، ولكنها كانت موازنة مضطربة لم تزدني إلا تردداً وحيرة .. وأخيراً ، تداعت إلى مخيلتي مرة ثانية صورة ذلك الموظف الجلف في وكالة الغوث ، وقلت في نفسي : هذه المرة لن استطيع الحصول على بطاقة جديدة ..

– إن أقدارنا نحن اللاجئين مسطورة في وريقات صغيرة !

وهنا لم تعد موازنتي قلقة ، فإنه من السخف أساساً أن تكون هناك موازنة بين الموت والحياة .. المشكلة محلولة من نفسها .. سأذهب فوراً إلى الشيخ حابس لاستعير منه الفأس والمجرفة .

* * *

بدا لي المخيم من قرب البلوطة الشائخة على سفح الجبل أشبه بمجموعة من شرانق الدود ، تستكن الحياة في داخلها ، وكل ما حولها بارد لا حياة فيه .. وكانت حبات المطر اللاذعة تسفعني من كل اتجاه ، فلقد كنت في دوامة من الريح احسست معها أن خطواتي لا تكاد تلامس الأرض ، وأنني أمشي بخفة بالغة ، وإن كنت بين الفينة والاخرى أحس بأن كل قوة الريح تدفعني إلى الوراء .

وتحت فروع البلوطة جلست لاستريح قليلا ، واخرجت علبة الدخان الحسنبكي لألف سيجارة .. كانت يداي مبلولتين ، فمررت بهما ، بكل هدوء ، داخل البطانية حتى جفتا تقريباً .

– ما اشهى الدخان في الشتاء ..

وشعرت براحة تامة وأنا أنفث سحابات الدخان فتتموج قليلا ثم تتلاشى ، واتنفس في الهواء، فيبدو نفسي وقد تكومت عليه ذرات البخار شبيهاً إلى حد كبير بسحابات الدخان التي انفثها .. وقد راقني أن اكرر هذه التسلية اكثر من مرة .. وإلى حد ما ، استطعت أن اقنع نفسي بأن فتح حفرة خديجة ليس من الخطورة والمبلاة بحيث يمنعني عن هذه التسلية التافهة .. انني بحاجة إلى تهدئة اعصابي ..

علقت البطانية على نتوء بارز في جذع البلوطة ، وتناولت الفأس والمجرفة بهدوء مصطنع ، ثم مشيت وئيداً تحت المطر ، حيث ينتصب الحجر الدال على القبر على بعد ثلاثين قدماً تقريباً ، وهناك جثوت لحظة على الأرض ، واعتذرت لخديجة .. ثم بسرعة بالغة ، أهويت بالفأس ، وتابعت ضرباتي بسرعة جنونية وكانت المجرفة إلى جانبي فأخذت اغترف الطين والحجارة واقذف بها جانباً .. وفجأة توقفت ، وأحسب أن دمي أيضاً توقف عن السريان في عروقي ، حين رأيت قماشة سوداء تعلق بالمجرفة ، فألقيت بها جانباً ، وأخذت أغمل بيدي . .

– اعتذر اليك يا حبيبتي .. أطفالك جياع ..

وخرج في يدي أحد الأثواب التي تغطيها .. ثوب آخر .. ثوبان .. يا إلهي ، لن يغمى علي ، فلم اقو على النظر الى الوجه الأزرق المتآكل .. ولكن ، يجب أن أحصل على البطاقة ، وأشحت بوجهي جانباً ، ثم أجلت يدي في قبة خديجة حتى عثرت على البطاقة ، فاخرجتها بحذر بالغ ، ووضعتها في جيبي .. كان المطر قد تجمع في الحفرة ، فانتفضت واقفاً ، وجعلت أهيل عليها الطين بعصبية بالغة ، وما كدت افرغ من ذلك حتى شعرت بأنني استيقظ من حلم مثير .. كل هذا بسيط . المهم أن البطاقة أصبحت في يدي .. ولكن ..

كيف ارتكبت هذه الحماقة ؟! .. ألم يخطر ببالي أن الماء قد اتلف البطاقة ؟. لقد تلفت كلياً ، وانحل عليها الحبر ، فلم تعد اكثر من وريقة ملطخة ببقع زرق . ولاشك أن الموظف المشرف على توزيع المؤن لن يستملح النكتة حين اتقدم إليه بوريقة كهذه طالباً حصتي من الدقيق والسكر ..

وأخذت طريقي إلى حيث تسوقني قدماي .. كان رأسي ثقيلا جداً ، ولم تعد نظراتي مركزة على شيء ، وهناك اكثر من خاطرة تدور في خلدي .. فالحياة والموت ، وغاية الوجود ، وقيمة الإنسان .. كل هذه كانت علامات استفهام كبيرة تنهال على رأسي كالمطرقة .

وتابعت سيري بلا هدف ، حتى لا أدري كم ابتعدت عن البلوطة ، وكانت زخات المطر الشحيحة ترادف في مخيلتي معنى النهاية ، والسحب الثقيلة السوداء تلاشت إلى سحب دخانية فاتحة ، ورأيت على خط الأفق الضيق منازل القرويين المتوضعة في سفوح الجبال ، وخيوط الدخان الضعيفة تتصاعد من مداخنها .. وكان قطيع من الماعز يتسلق أحد السفوح ، وفيما بين الصخور الصلدة الرصاصية كانت تمتد مساحات صغيرة من الاعشاب . وعلى وجه الإجمال ، فإن ألوان اللوحة الحقيقية الكبيرة كانت هادئة متناسقة ، وأحسب أنني تذوقتها بعمق لا عهد لي به من قبل ، ولعل الألم الذي عانيته مؤخراً قد ارهف اعصابي إلى حد تتلقى معه كل المؤثرات بانفعال شديد ، وتستوعب حتى الاشياء الصغيرة استيعاباً شعرياً عميقاً .. وكان اروع عناصر اللوحة بلاشك منظر قطيع الماعز ، حتى لقد تمنيت أن أكون راعياً .. إنني على الاقل لا أغدو بحاجة إلى استجداء اليد الأجنبية ، فلا آكل من وكالة الغوث ، ولا ألبس من الاتحاد اللوثري ، وبالاضافة إلى ذلك لا افكر مطلقاً في الانتحار ..

وحين استدرت إلى الخلف وحدقت في اتجاه المخيم ، لم يكن يبدو لي منه شيء على الاطلاق ، ولا أدري ما إذا كان سبب ذلك هو انني ابتعدت كثيراً بحيث توارى المخيم عن ناظري ، أو أن الأشياء عادت غائمة بالنسبة لي فلا استطيع تمييزها .. ولكني على الحالين تمنيت في قرارة نفسي ألا أرى المخيم إلى الأبد .. لقد استيقظ في شعور جديد ، وإن لم يتضح بعد ، شعور بما يشبه الأنفة ، ولا انكر أنني احتقرت نفسي وبصقت على الأرض بشدة ، عندما تذكرت أن فكرة الانتحار راودتني قبل قليل ، لمجرد أن يداً أجنبية ستمتنع عن إعطائي بعض الدقيق والسكر ، لقاء ثمن باهظ كبير !

— ابن الشيخ حابس يعمل مدرساً في حمص ..

ولم تكن مجرد كلمات عادية تقفز إلى الذاكرة ، بل كانت نداء صاخباً كعظمة الحياة نفسها .. يجب أن أعمل .. يجب أن أعيش .. سأتغلب في النهاية . سأنتصر ..

وتحسست ذراعي اليمنى ، فخيل لي أن كتلة صلبة من العضلات تلتف عليها ، ومررت بيدي مراً سريعاً على وجهي وصدري لا ستعيد الثقة بشبابي ، وقد اخطأت ليلة أمس عندما جزمت بأن ظهري متقوس وجسمي منهار ..

وعندما بدأت استريح نفسياً من جلبة الاصوات الداخلية المتصارعة في ، جلست على صخرة قريبة لآخذ قسطاً من الراحة الجسمية ايضاً .

كانت الغيوم تضمحل رويداً رويداً ، أشبه ما تكون بسورة الألم الهائجة التي أخذت تزايلني قبل قليل ، وايقنت أن شريط الأحداث المفجعة التي مرت بي منذ النزوح حتى اليوم لم تزدني إلا عناداً ومناعة ، وأن انتصار الطبيعة والقوى الشريرة لا يمكن أن يكون إلا موسمياً قصيراً ..

— حقاً ، إنني شيء ذو قيمة .

الخليل

يوسف الخطيب

صدر اخيراً

عن دار الآداب

قناديل اشبيلية

مجموعة قصص رائعة للقصاص السوري المعروف

الدكتور عبد السلام العجيلي

قصص انسانية عميقة ذات جو سحري عجيب

ثمن النسخة ١٥٠ قرشاً لبنانياً او ما يعادلها

تطلب من دار الآداب — بيروت ص . ب ٤١٢٣